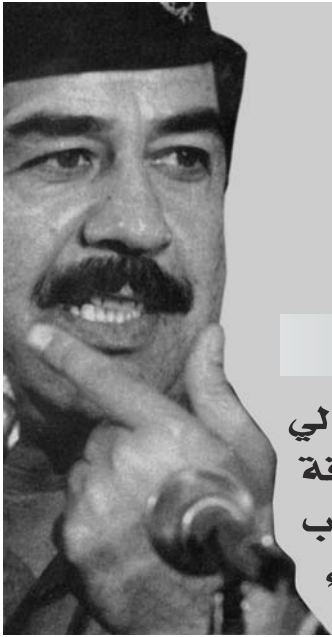


# عالم صدام حسين

تأليف: مهدي حيدر

هذه الرواية ليست نصاً تاريخياً، بل هي عمل من نسج الخيال، يستغل الواقع لبناء عالم خيالي مواز للعالم الواقعي، يتطابق معه أحياناً ويختلف في أحيان أخرى، فتعطي شخصيات معروفة مصائر مختلفة عن الواقع التاريخي بحسب ما تقتضيه الحاجة الفنية. كما يحوي هذا الكتاب اقتباسات عربية وأجنبية من أعمال أدباء ومؤرخين وصحافيين وسياسيين وشعراء



## من زنزائته كان صدام حسين قادراً على متابعة تحالفات الرئيس عارف المستجدة

اليومية - خلال ساعة النزهة - مع السيارين، خصوصاً الشيوعين. بكلمات قليلة أظهر عفلق أن الماركسية لا تصلح في هذه المنطقة من العالم. الماركسية فلسفة غربية عن الفكر العربي، فلسفة عاجزة عن فهم الذات العربية. قد تقدم لنا بعض الأسلحة المفيدة، لكن هذا هو كل ما تقدر أن تقدمه لنا. عبد الخالق السامرائي كان يندفع إلى نقاش حافل بمسالك خطيرة. هو - صدام حسين - فصل عدم سلوك تلك المتاهة من الأمثلة والحجج والردود. لا ضرورة لإتباع الذهن وإبعاده عن الهدف الأساس. لا ضرورة لتبديد الوقت في إقناع الخصوم. اكتفى صدام حسين بالمهم. أن يجمع الرفاق حوله، وأن يكف عنهم أذى كلمات الآخرين، وخطر هذه الكلمات.

- على البعثي أن يتحسن في قلته.

عدنان خير الله، بقدمين محروقتين بأعقاب السجائر، كان يمشي قافزاً كطير الحجل، ثم يرمي نفسه على طرف الإسفنج، في زاوية ابن عمته صباح، ويستمع إلى صوته الناشف المعبا بالسلطة. كان هذا الصوت - صوت صدام حسين - البوصلة الوحيدة التي تعينه على الخروج من ضباب آلامه الكثيف المتجمد. مع كل خطوة، منذ أن أحرقوا جسمه وكسروا ألواح خشب على عظامه، يحس عدنان خير الله طفلاً، أنه ما عاد يمشي على أرض صلبة، أنه ما عاد يمشي على تراب أو باطون أو إسفلت أو صخر. يحس أنه يمشي على صفحة نهر متجمد. مع كل خطوة يبلأ الخوف قلبه: قد تتصدع القشرة الرقيقة ويجد نفسه مغفوراً بالماء.

الذكريات كانت تداهمه في الليل، فيخرج من كوابيسه صارخاً، وريثاه مطعوجتان إلى الداخل، فارغتان من الهواء: يرى في المنام أنه ما زال في سجن (خلف السدة) وأنهم يدلونه مربوطاً كالبهيمة من كاحليه في بركة الجارير العميقة. ينزل رأسه في السائل الكثيف، شعره، جبهته، حاجباه، عيناه، أنفه، فمه، يغمر القرف عقه، ويدلونه أيضاً: القرف على صدره العاري، على كامل جذعه، ويدرك أنه يختنق. لم يعد يوجد أوكسجين في رتبه، في دمه، في جسمه. لن يفتح فمه، يقول في نفسه: يفضل أن يموت بلا هذا القرف في داخل جسمه أيضاً. ثم يكتشف مذعوراً أن السائل الكثيف ولج فتحتي أنفه وبات يجري في أعضائه.

صوت صدام حسين الصارم ألقده:

- كن رجلاً رقيق. ما حدث انتهى. الماضي لا يؤثر في البعثي المهم الغد.

حين أراد عدنان أن يفتح فمه كسر صدام حسين الأمر: - الضعيف يضعف الجماعة، يهدد الحزب، علينا أن نتحصن في قلاعنا وأن نستعد طوال الوقت. استعد!

قال عدنان خير الله:

- حاضر رقيق!

بعد ذلك الحوار مع صدام حسين سيطر عدنان خير الله على كوابيسه. بينما يدلونه بالحبل إلى البركة المقرفة أمسك بالأيدي التي تقبض على جسمه وغارز أسنانه فيها. كانت أسنانه تتكاثر في فمه، عشرات الأضراس، عشرات الأنياب، نبئت في فكيه وفرخت بقوة الرائحة العضوية الخصبية المتصاعدة من الحفرة القائمة. عليه أن يتحصن، أن يستعد، هكذا قال له الرجل صاحب العينين الواسعتين تحديقاً إلى الظلام بقنارات تهدم الجدران. عليه أن يتحصن، ليجعل هذا الجسم الضخم سلاحه إذاً. في الكابوس، بينما أسنانه التي لا تحصى تنفرغ في لحم وعظام أعدائه، ذاق عدنان خير الله طلفاح طعم الدم البشري على لسانه. فتح عينيه في ظلام الزنزانة فاكتشف أنه أدمى معصمه كان يعض ذراعه لئلا يصرخ في الليل.

أن العقيد عماش بات منذ إحباط عملية اغتيال عارف الأخيرة في دائرته الشك. الشخص الوحيد الذي يظل خارج هذه الدائرة، بالنسبة إلى صدام حسين، هو العقيد البكر. لن يقبل العقيد البكر أي تحالف مع أي سلطة ضد (البعث). إذا ظهر للعامة أنه يفعل أمراً كذلك، فهذا لا يعني أنه

يفعله حقاً. قال صدام حسين إنه يقدر أن يعتمد على العقيد البكر دائماً. فكر أنه الآن يخسر جدولة: سوف يختار عبد الخالق السامرائي ويسمح للعقيد البكر بتلك الابتسامة لكن هذه الخسارة المؤقتة لن تؤذيه. بالعكس: العقيد البكر سوف يتشجع أكثر منذ اليوم على التعامل معه كابن وصديق.

حين رجعت ساجدة بعد أسبوع أعطاها ورقة مطوية. دفعته بيد مرتجفة داخل بطانية عدي الجديدة المقسمة إلى مربعات خضراء وصفراء. كانت رسالة في كلمة واحدة: (السامرائي).

خلال فصل الربيع، قبيل مغادرته البلاد في رحلة أوروبية، أصدر الرئيس العراقي عبد السلام عارف أمراً بإطلاق مجموعة من المعتقلين السياسيين. ساجدة خير الله، في البيت في الكرخ، لم تكن تتوقع خروج زوجها، لكنها أملت أن يخرج أخواها عدنان مع الخارجين. مشدودة الأعصاب أمام الراديو الذي بات يخشخش كثيراً في الآونة الأخيرة استمعت إلى الأسماء التي يذيعها صوت حزين وقوي يشبه صوت فريد الأطرش. لم تسمع الاسم الذي تنتظره. لكنها سمعت أسماء مألوفة. ناظم كزار مثلاً. العقيد عماش أيضاً. قرأ صدام حسين قبل نهاية ذلك الشتاء مجموعة إصدارات سلسلة (روائع الأدب العالمي) المبسطة. قصص لأندرية جيد وفيكاتور هوغو وألكسندر دوماس وفويدور



تحالفاً تحالفاً. العقيد البكر في المقابل وطد أحلافه القديمة في تنظيم (الضباط الأحرار) وأعاد فتح قناة مهمة مع حردان التكريتي. كان عليه أن يضمّن الرجل إلى جانبه، ضد الرئيس عارف، الرئيس الذي بات تابعاً لعبد الناصر على نحو مكشوف. في رسالة وصلت بعد عاصفة أمطار ورياح دامت أياماً، سأل العقيد البكر مساعده صدام حسين أن يختار اسمين من ثلاثة أسماء. كتب العقيد البكر في تلك الرسالة أن الرئيس عارف وافق على إطلاق رقيقين من كوادير قيادة (بعث العراق)، يشترط اختيار السجينين من لائحة وضعتها بعض الضباط. اللائحة خلت من اسم صدام حسين، وضمت 23 اسماً. العقيد البكر أخبره أن عليه اختيار اثنين من الثلاثة الذين دون أسماءهم هنا. كتب العقيد البكر: (اختصرت اللائحة من 23 اسماً إلى 3 أسماء. عليك الآن حذف اسم من الثلاثة).

صدام حسين رفع رأسه عن الورقة المجموكة بين أصابعه الجافة. نظر إلى ظلمة الساعة السادسة مساءً وراء القضبان والزجاج العالبي المتسخ. كان يلف ساقيه ببطانية، وعلى كتفيه بطانية أخرى تفصل ظهره عن صقيع الجدار. انتبه أن العقيد البكر يلعب معه جولة شطرنج. ذلك واضح من الأسماء الثلاثة على الورقة: ناظم كزار، العقيد عماش، وعبد الخالق السامرائي.

أيقن صدام حسين عندئذ أن العقيد البكر استطاع بلوغ سريره بنظرة قائمة باردة. كابة العقيدة منحته طاقة التكهن. ريبته الأصلية الباطنية تدله إلى الأثر الصحيح مثل كلب صيد. العقيد البكر يعرف سلفاً الاسم الذي يود صدام حسين حذفه. لن يحذف ناظم كزار. لن يحذف العقيد عماش. سوف يحذف رفيقه عبد الخالق السامرائي. أدرك صدام

## حمل صدام حسين ابنه عدي بين ذراعيه، بينما زوجته ساجدة تخبره عن أحوال العالم الخارجي قبل أن يعطيها الولد دس ورقة في الثياب الرقيقة البيضاء

حسين أن هذا الاختيار سيرسم ابتسامته على وجه العقيد البكر. أدرك أيضاً أنه بهذا الاختيار يخسر الجولة التي لعبها العقيد بكر وحس دعاية في آن معاً. (البعث) يحتاج طاقة ناظم كزار الأمنية الآن. كما يحتاج قدرة عبد الخالق السامرائي القيادية بصفته أحد المنظرين المدنيين، لكنه لا يحتاج العقيد عماش: العقيد البكر يقدر بلا مساعدة أن يرتب التحالفات المطلوبة في صفوف العسكر في الوقت الحاضر. ثم

كانوا 17 رجلاً يفتشون أرض القاوش الذي لا تتجاوز مساحته 25 متراً مربعاً، وفي أيديهم صحن معدن مطعوجة الحواف تملؤها حبوب القول المسلوقة مع الملح وعظام البقر. نور الواحدة والنصف ظهرأ تسرب مملوءاً بذرات الغبار عبر النافذة المرتفعة المزودة بقضبان حديد ثخينة وبشبكة معدن رفيع ممزق، وزجاج - وراء القضبان والشبك - مهشم وملطخ ببقع زيت وأوساخ. عرض النافذة يقارب المتر. ارتفاعها لا يتجاوز 40 سنتمتر. كانوا يتناوبون على القفز والتعلق بالقضبان ورفع الرأس والنظر إلى الرمال الممتدة شرقاً والأسواق المتشعبة غرباً. الأقصر بينهم كان يعينه بعض الأوقياء فيرتفع لحظات على أكف أو أكتاف ثم يهبط بعد قليل. فوق النافذة امتدت قساطل وأنابيب، تهرأت بطانة إسفنج تغلفها فتدلت مع خيطان العنكاكيب وفتائل الغبار القائمة. الحمام كان في الزاوية، بنصف حائط يفصل الحفرة وحنفية الماء، عن باقي القاوش. الحيطان كلها مبقعة بالعفونة، في موسم الأمطار تنز ماء من الجوانب ومن السقف. الأرض تكسوها قشرة سميكة من الشحوم وما يشبه الطحالب. يشطفونها بمياه يجلبونها من حنفية الماء بالسلط الحديد، لكن القشرة القديمة المتحجرة كصدف بحري لا تزول. توزعوا عاجزين على فرشاة إسفنج ضيقة، وألقوا ظهورهم العرقانة على الحيطان.

صدام حسين كان ينهض باكراً مع أذان الفجر، ويبدأ تمارينه الرياضية. يسمع عبر الجدار حركة في الزنزانة المجاورة ويدرك أنهم يصلون. بعد دقائق يتلاشى كل صوت. وحده الشخير حوله يبقى مسموعاً في ذلك الوقت الفاصل بين أذان الفجر واستيقاظ المدينة. مع شعاع الشمس الأول تفرقع أبواب الحديد الجارية في الأسواق المجاورة، يرفعها أصحاب المحلات بعنف من استيقظ من نومه عكر المزاج، فتعلوا الشتائم في الزنزانة.

خلال الشهر الثاني سجيناً، التقى صدام حسين العقيد البكر. كان لقاء قصيراً لم يتجاوز الخمس دقائق. لاحظ أن بشرة العقيد اكتست بلون طحلي مخضر. صدام حسين ظل صامتاً طوال مدة المقابلة تقريباً. قبل أن يتصافحا ويفترقا قال العقيد:

- قد أخرج بعد أيام. لكن اتصالنا لن ينقطع.

لم يعرف صدام حسين أن العقيد البكر أفرج عنه بضغط من الدول العربية إلا بعد أسبوعين على حدوث الأمر. أخبرته زوجته ساجدة خير الله ذلك حين أتت تزوره حاملة عدي ملفوفاً في بطانية صوف ناعمة زرقاء. أخبرته أيضاً أن أخواها عدنان مسجون في (خلف السدة) وأن العقيد البكر يحاول التوسط ونقله من هناك إلى هنا، لكي يكون بين رفاقه. كانت دامعة العينين. رفع صدام حسين إصبعاً في وجهها. لاحظت ساجدة الظفر المتشقق المسود. ورات آثار حروق ضعيفة ظاهرة على قفا يده. أخذت نفساً عميقاً وقالت إنها مصابة بالرشح منذ الأمطار الأخيرة.

في الأسبوع الأول من شباط 1965 حمل صدام حسين ابنه عدي بين ذراعيه، بينما زوجته ساجدة تخبره عن أحوال العالم الخارجي. قبل أن يعطيها الولد دس ورقة في الثياب الرقيقة البيضاء. كانت تلك رسالته الأولى من السجن إلى رفيقه العقيد البكر. خلال الأسابيع التالية تحول عدي الملفوف بالثياب إلى صندوق بريد بين الرجلين. في رسالة مقتضبة، وأحياناً طويلة، أعاد العقيد البكر بمساعدة ذراعه اليمين صدام حسين، تنظيم وترميم هيكل (جهاز حنين) بانتظار اللحظة المناسبة. من زاويته في الزنزانة كان صدام حسين قادراً على متابعة تحالفات الرئيس عارف المستجدة